أربعون عاماً مع السادات

" من أوراق أنور حبيب"

أهي الصدفة وحدها، أم وحي الحق أن أتزامل معه في الدراسة الثانوية بمدرسة فؤاد الأول الثانوية في الثلاثينات، ثم أتولى التحقيق معه في أخطر القضايا السياسية في الأربعينات ؟؟

فقد افتتحت بوصفي وكيلاً للنائب العام أول محضر من محاضر التحقيق في الجنايـة رقـم ١١٢٩ لسنة ١٩٤٦ ثم نحيت عنها بتحريض من رجال البوليس السياسي ليباشرها بدلاً منـي محققون غيري.

ثم تشاء إرادة الله أن يتنحى الأستاذ محمد كامل قاويش عن المرافعة ليخلفه عبد الرحمن بـك يوسف الذي توفى لى رحمة الله قبل بدايتها لأختتم أنا هذه الدعوى ممثلاً للاتهام كمـا بدأتـه محققاً وما إن تناولت القضية حتى وجدت نفسي أمام أنور السادات وجهاً لوجه أمـام نسـيج بشري ذي تماسك صلب، مصري تملأ وجدانه وطموحه، إرادة بشرية مختلفة، بـل عجينـة ثورية تفوق من سبقتها من الثوار.

وجدت نفسي مرتبطاً به، مشدوداً إليه فمثل في ذهني كل ما أعرفه وأسمعه عنه فقد كان زميلاً للدراسة في مدرسة فؤاد الأول الثانوية وكان يسترعى انتباهنا ما حباه الله به من رجولة مبكرة ووطنية فذة إذا اشتهر بين أقرانه بكراهيته الهائلة لقوات الاحتلال وبقدرته الشخصـية علـى جذب الطلبة من حوله وشحنهم بالمشاعر الوطنية الفياضة.....

وكان حريصاً في التحفز على المشاركة في كل تحركات الطلبة السياسية والتي كانت تتمثـل وقتذاك في مظاهرات الاحتجاج على الإنجليز وعلى الحكومات المتهاونة في حقوق البلاد مما عرضه لكافة أنواع الظلم والاضطهاد بل للفصل من الدراسة.

ولقد ظل مؤمناً بما يدور في رأسه من أفكار وأحلام وطنية حتى بعـد تخرجـه فـي الكليـة الحربية والتحاقه ضابطاً في القوات المسلحة وانخراطه في صفوفها النظامية، إذا كان يترامى إلى أسماعنا ونحن مازلنا طلاباً بالجامعة أنه لم يتخل عن واجبه الوطني وثوريتـه المعهـودة وأنه يحاول تطبيق قيادته في وحداته العسكرية وبين أقرانه العسكريين حتى أصبحت سـيرته بين الشباب في الجامعة وخارج الجامعة إحدى العلامات البارزة على طريق النضال الوطني الذي خاضه شعب مصر، كما كان يترامى إلى أسماعنا ما يتعرض له من إرهاب وتنكيل من

المستعمر والملك سواء بالاعتقال أو الفصل من خدمة القوات المسلحة أو المطاردة المستمرة بل أنه للحقيقة والتاريخ كان بعضنا يبحث عنه ليراه.

كانت تلك صورة أنور السادات في ذهني وأنا أتولى التحقيق في أخطر القضايا التي مرت بتاريخ مصر السياسي، ففي هذه القضية قبض على عزيز باشا المصري لعلاقته بأنور السادات كما أدى الشهادة فيها مصطفى النحاس وعلى ماهر وحافظ رمضان وبهي الدين بركات وحسين سري ومحمد حسنين هيكل.

وقد وجدت في أنور السادات شاباً بسيطاً يمثل أغلبية شباب مصر، ثرياً بحبها مؤمناً بضرورة التضحية بالروح من أجلها متحفزاً للمزيد من التضحيات فلم يهتز إيمانه ولم تهن عزيمته، من كل ما تعرض له من اضطهاد أو فصل أو مطاردة إذ لم يكن أنور السادات بالرجل الذي يحطمه الفصل أو المعتقل أو الاضطهاد.

لقد استحوذت صورة أنور السادات هذه على ذهني وأنا أتولى مهمة الاتهام في هذه القضية وكنت أراه مع شركائه رواد لجيل جديد من الشباب الوطني وعلى هذا الأساس كان سلوكي ومسلكي معهم وأذكر أن أنور السادات كان يرغب في زيارة أسرته أثناء المحاكمة وأنه تقدم بطلب للتصريح له بزيارة الطبيب المعالج ليتخذه ستاراً لتحقيق رغبته فلم أتردد في التصريح له لقناعتي بنبيل غرضه ورجولته وأمانته وكان حافظ على وعده لي ولم يحاول أن يستغل هذه الرخصة في الهرب، وتلك قمة الشجاعة والأمانة في حين أن حسين توفيق أوقعني في حرج عندما استغل هذا الموقف من جانبي وهرب وشتان بين الموقفين.

لذلك، فإنه لم يكن عجيباً أن أسهل مرافعتي بوضع القضية في إطارها الحقيقي فأصف يوم ٤ فبراير بأن سيظل وصمة في جبين الإمبراطورية البريطانية وسيظل دليلاً صارخاً على البربرية التي هوى إليها الإنجليز في ذلك اليوم الأغبر الكالح.

وسنظل نلعن الإنجليز أبد الدهر ما داموا محتلين بلادنا ولو كانوا في أجدب بقعة فيها. واستطرد قائلاً إنه يخيل إلي أن كل باب يغلق كأنما ينصفق في وجوههم وأن كل حجر بأرض الوادي ود لو طار فحصبهم في جباههم وإن كل كلب إنما يصرخ في وجوههم: أخرجوا من هذا البلد، الجلاء ووحدة وادي النيل شعورنا وشعارنا، بل هو ترديد لو جيب قلوبنا. ونبضات دمائنا وهمسات أرواحنا شيباً وشباباً ورجالاً ونساءً وقد لا يكون من المبالغة في القول أن أردد ما جاء على لسان بعض أساتذة القانون والمحامين من أن هذا الموقف لممثل الاتهام إنما كان الأول من نوعه في التاريخ.

ولئن كان محمد كامل قاويش قد نحى عن المرافعة، في هذه الدعوى وعبد الرحمن يوسف قد مات فإن السلامة لم تكتب لي كاملة إذ نلت قسطاً بالغاً من اللوم بسبب أدائي لبعض الواجـب في هذه الدعوى فقد فوجئت بالنائب العام يستدعيني ليلاً ليبدي استياءه من مرافعتي فعرضـت عليه استقالتي وهنا تدخل بعض المستشارين وعلى رأسهم مدير التفتيش المرحوم المستشـار مصطفى حسن الذي هاجم النائب العام وأوصلني بسيارته إلى منزلي ونصحني بالاستمرار في مرافعتي. غير أن النائب العام عاود الاتصال به قبل التوجه إلى قاعة المحكمة. فلمـا ذهبـت إليه اصطحبني إلى قاعة المحكمة ثم فوجئت به يعتلي منصة النيابة معلناً " إن الكلمة التي قدم بها زميلي الأستاذ أنور حبيب مرافعته حدثت فيها تغييرات وتشبيهات ومجازات ولم أشك حين اطلعت عليها في الصحف أنها جاءت وراء مراده ووقفت بعيداً عن مقصودة نتيجة للتعـرض لمخاطر الارتجال وأثراً عرضياً لجو القضية نفسه، على أن تلك العبارات بما مست من شئون السياسة الخارجية يصعب في الواقع تبرير قولها على هذا النحو كما يصـعب ربطهـا بهـذه الدعوى، ولذلك فقد استأذنت زميلي أنور بك فأذن لي أن أصرح بأن تلك العبـارات لا تعبـر بحال عن رأي النيابة العمومية وأرجو من سعادة رئيس الجلسة أن يأذن بإثبـات ذلـك فـي المحضر".

وهنا أحسست إنني على فوهة بركان قد انفجر ملأني الغيظ والغضب وكدت أن أقـف معلنـاً استقالتي من العمل بالنيابة العمومية لولا أن تدخل نيابة عني المتهمون فهاجوا وصاحوا فـي وجه النائب العام أن يتدارك أخطاء هذا العبث لأنه لا يتفق وما يحمله كل مصري لوطنه مـن إجلال وتقديس، ولكني لم أعد إلى وعي ولم أسترد هدوئي إلا عندما وجدت أنور السادات ذلك الشاب الهادئ الواقف في القفص يقفز منه وكأن القاعة كلها قد أصبحت بـين يديـه ويـزأر كالأسد صارخاً في وجه النائب العام " إني أفضل أن أشنق ألف مرة بلا محاكمة على أن أرى النائب العام وهو يسحب الكلام الوطني الذي قاله ممثل النيابة حين هاجم الاستعمار البريطاني لبلادنا".

وقد كان لحماس وبطولة الشاب الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين أثره الكبير على المحاكمـة إذا عاد للقضية جوها الوطني وملامحها الثورية وأحست هيئة الحكم أن محاكمة المتهمين إنما تدور أساساً لأنهم ثاروا في وجه الاحتلال وصنائع الاحتلال وهنا شعرت بمدى النجاح الـذي حققته مرافعتي.

وقد استمرت المحاكمة حتى يوليو عام ١٩٤٨ حيث صدر الحكم ببراءة أنور السادات وكانت قضيته على كل لسان في أسلحة الجيش المختلفة بين الضباط والجنود وبين جماهير الشعب

التي تعاطفت معه بل وبعض الأسر الأرستقراطية ممن قرأ واقعة المحاكمة وأعجبوا بثـروة المتهم أنور السادات حين وقف غاضباً ثائراً في قفص الاتهام صارخاً في وجه النائب العام.

ولقد اهتمت الصحافة المصرية بقضية الثائر الشاب أنور السادات وأبرزت مراحـل نضـاله وكفاحه وقصة حياته مما ساعد على تعقبه وفرض رقابة سرية كاملة عليه ليل نهار.

وجاء عام ١٩٤٩ وقد تحول أنور السادات للعمل الصحفي. وبينما كنت أقضي صـيف هـذا العام بمدينة الإسكندرية فوجئت وأنا جالس بمحل اتينيوس بمن يختـرق صـفوف الجالسـين ويتقدم إلى فإذا أنا أجد نفسي أمام أنور السادات فانتصب واقفاً فإذا به يقبل علي ويحتضني في مودة خالصة.

ومضى عام ١٩٤٩ وعاد أنور السادات إلى الجيش المصري ولكني وجدت نفسي مشـدوداً إليه مرتبطاً به ومازالت صورته في القفص وهو يصرخ في وجه النائب العام ماثلة في ذهني متكررة يوماً بعد يوم فأخذت أتتبع أخباره من بعض زملائه الذين يرتبطـون بـي بصـلات الصداقة والمعرفة حتى فوجئت في فجر يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وأنا رقيب عام بالرقيب المختص بالإذاعة " كمال كيرة" يتصل بي ويبلغني أن البكباشـي أنـور السـادات موجـود بالإذاعة ويريد الاتصال بي فشعرت أن قصتي معه طويلة وأن فصولها متعـددة ومتنوعـة وتخيلته أمامي يصرخ في وجه النائب العام فطلبت من الرقيب أن يوصلني به فـوراً. ولمـا حدثته أخبرني أن الجيش قد قام بالثورة لتطهير البلاد من الاحتلال والفساد والملكية وأنه يريد إذاعة بيان الثورة غير أن – الموجودين بالإذاعة أخبروه بأنهم لا يسـتطيعون تحمـل هـذه المسئولية ويريدون موافقتي فأعلنت له موافقتي على الفور متمنياً له كل نجاح وتوفيق وفـي نفس الوقت لفت نظره إلى ضرورة تأمين محطة أبو زعبل خشية تعطيل الإرسال من هنـاك وانتهى الحديث التليفوني واتجهت إلى المذياع متعطشاً إلى سماع البيـان غيـر أن الإرسـال الإذاعي تأخر قليلاً فاتصلت به في الإذاعة مستفسراً عن سر هذا التأخير فطمأنني قـائلاً أنـه سيتم بعد قليل ولم أهدأ إلا بعد أن استمعت إلى المذياع لآيات الذكر الحكيم ثم صـوت أنـور السادات مدوياً بقيام ثورة ٢٣ يوليو.

وقد شاءت إرادة الرحمن أن تستمر الصلة قائمة بيني وبينه بعد الثورة فإذا به يبلغنـي شـكر وتقدير مجلس قيادة الثورة على موقفي من إذاعة بيانها الأول ثم يطلب إلى بوصفي أميناً عاماً الاشتراك معه في المؤتمرات الصحفية التي كان يعقدها أسبوعياً بمجلس قيادة الثورة باعتباره المتحدث الرسمي لها.

وقد ظلت صلتي به مستمرة طوال هذه المؤتمرات التي استمرت لفترة طويلة كما كنت دائـم الاتصال به بعد ذلك وثبت في كل مرة أقابله أقابل منه كل حب ومودة حتى أنه أمر أن أظـل رقيباً عاماً ومديراً للمطبوعات.

وقد استمرت صلتي بالسيد الرئيس أنور السادات بعد ذلك فكنت أزوره بين الحـين والحـين سواء في السكرتارية العامة للمؤتمر الإسلامي أو في مجلس الشعب زيـارات حـب ووفـاء وصداقة.

وكنت أراه قد جند نفسه مناضلاً ضد الظلم والعدوان فما من شخص طرق بابه يشكو ظلامته إلا وعمل على حلها فوراً، ولكم كان موقفه كريماً جليلاً عندما تدخل بقوة وحزم للحيلولة دون مذبحة القضاة في عام ١٩٦٩ لولا تكتل مراكز القوى ضد مسعاه.

وأذكر أنني زرته في قصر الطاهرة في عام ١٩٧٠قبل انتخابه رئيساً للجمهورية مع وفد من المحامين للإعلان عن تأييدنا له، وكنت أقف في الصفوف الخلفية ولم أتمكن من تحيته، ولكن السيد الرئيس لمحني وأنتظر حتى انتهاء الكلمات التي ألقيت ثم اخترق هذه الصفوف وجذبني إليه واحتضني باشتياق قائلاً إنه سعيداً جداً برؤياي وطلب إلي أن أكرر الزيارة.

ولكني لم ألبث أن فوجئت بعد انتخابه رئيس الجمهورية بأن وزارة العدل تتصل بي لتبلغني أن السيد . رئيس الجمهورية سيرأس بنفسه اجتماعاً للمجلس الأعلى للهيئـات القضـائية بقاعـة محكمة الجنايات بباب الخلق حيث تمت محاكمته وأن سيادته قد أشار بحضوري في الموعـد المحدد دخل السيد الرئيس إلى القاعة وجلس على مقعد رئيس المحكمة ثـم أدار عينيـه فـي القاعة واستمر نظره معلقاً على قفص الاتهام حتى اغرورقت عيناه بالدموع فكان موقفاً رائعاً مؤثراً لم أتمالك معه نفسي فانهمرت في البكاء ثم بدأ الرئيس كلمته بحمد الله وشكره وأن هذه إرادة الله وبعد ذلك قدمني السيد وزير العدل إلى سيادته فحرصت على أن أراعـي التقاليـد بالنسبة إلى السيد رئيس الجمهورية بأن اكتفي بالتحية والانحناء، ولكن السيد الرئيس جـذبني إليه واحتضنني، وهو يبكي فبللت دموعه ودموعي ملابسنا فتذكرت قول الشاعر. كأن صديقا في خلال صديقه.

تسرب أثناء الدموع وذابا.

وتحدث السيد الرئيس في هذا الاجتماع إلى أعضاء المجلس الأعلى للهيئات القضائية فأشـاد برسالة القضاء باعتبارها رسالة سامية تهدف إلى إقرار الحق والعدل بـين النـاس قـائلاً إن

القضاء المصري على طول تاريخه في مصر الحديثة كان نموذجاً مشرفاً يعتز به أبناء هـذا الوطن وأنه شخصياً قد مر بتجربة اختبار معدن وصلابة هذا القضاء أيام سنوات الكفاح ضد الاحتلال، إذ بينما كان الاستعمار بما له من جنود وأسلحة جاثماً. على أرض الوطن وبكل ما كان له من قوة تذل أعناق الملك والأحزاب والزعماء وقف وكيل نيابة شاب يتحداه وبدلاً من أن يقدم رقبتي إلى حبل المشنقة بحكم عمله استهل مرافعته بأن كل كلب ينبح في مصر يقول لبريطانيا أخرجي من مصر- ثم منحني أنا وأعضاء الدائرة وسام الجمهوريـة مـن الطبقـة الأولى تكريماً من سيادته لرجال القضاء ثم عاود ودعاني إلى قصر عابـدين حيـث سـلمنا الأوسمة في وجود أعضاء المجلس الأعلى للهيئات القضائية وكان بنا حفياً كريماً سمحاً.

ومرت الأيام في عهده أعياداً. وتوالت الأعمال أمجاداً.. فحقق لنا نصر أكتـوبر مـن عـام ١٩٧٧ حتى جعله في الصباح والمساء يوم القضاء.

ففي الصباح التقى الزعيم المناضل بالمجلس الأعلى للهيئات القضائية، وأختـار لـذلك قاعـة المحكمة التي شهد فيها أحرج أوقات حياته وأخطر لحظاتها حيث استذكر فيها بـالفخر يـوم وقف منهما يحتويه ليل الظلم والظلام وقفص الاتهام، وقدمه الاستعمار بتهمة هـي الوسـام.. الوسام الذي هو أشرف من كل وسام إنها اتهام الوطنية.. والدفاع عـن الحريـة.. ومحاربـة المستعمر... الذي عاش في بلاده يخرب ويدمر...

تذكر السيد الرئيس أنه رأيى في هذا القفص من هذه المحكمة الكثير.... رأى فيها وطنية شاب أبي إلا أن يقدم الاستعمار إلى المحاكمة بدلا من الوطنين المكافحين عن راية بلادهم... رأى فيها العدل والحق... وأحس بها قوة زادته قوة.. وحماساً أذكى فيه نار الثورة...

وفي المساء كان اللقاء... لقاء التقدير والوفاء... في نادي القضاة والقضـاء.. ولا عجـب إذا أصبح بهم وأمسى معهم... فقد ارتبط بهم حباً ووفاء .. وبذلا وفداء... وحكمة وقضاء. وبعـد أن كانوا هم المدافعين عنه في أيام الكفاح أصبح هو محامياً للقضاء أبلغ ما يكون المحـامي دفاعا... وقاضيا بحق القضاء أقوى ما يكون القاضي اقتناعاً فأعلن أن قلادة النيل التي كانـت تهدي قبل الثورة لمن يطلب الإنجليز من الملك إهداءها إليهم أو من يريد الملك أن يكرمه من السياسيين على حساب زملائه. لن تمنح بعد اليوم إلا للهيئة القضائية تكريماً لكل العاملين فيها ولدورهم البناء في ولرسالتهم النبيلة كما منحني وشاح النيل تقديراً كريماً منه لمـوقفي الـذي تتلمذت فيه على يديه.

ما أعظم صدقه ووفاءه.. وما أعظم تكريمه للقضاء عرفاناً بدور العظيم.

وبعد فإن ما أسطره من ذكريات لي مع أنور السادات هو تحية إعزاز وتقدير للبطل الذي كان اسمه أول اسم عرفناه من بين صناع ثورة يوليو سنة ١٩٥٢.

فقد عرفنا اسمه قبل قيام هذه الثورة بعشر سنوات عرفنا أن هذا الشاب الوطني، هـو طليعـة الفدائيين الذين وهبوا أرواحهم لله والوطن.

سمعنا به كما تسمع بالأسطورة الدافعة، شاباً رائداً- يعشق مصر، وفي سـبيل هـذا العشـق يتحدى طاغوت الإنجليز، وجبروت الملك، ويضرب بالوظيفة عرض الحائط ويقف في قفص الاتهام ويدخل السجن دون أن يهتز له إيمان.

عرفناه ثائراً ثم عرفناه عسكرياً محارباً...

ثم بطلاً من أبطال السلام..

www.anwarsadat.org